شفاه غليظة

قصة مصرية

بقلم : محمود تيمور بك

من عادتي أن أتفادى من الذهاب إلى المصرف ، في الأيام الأولى من الشهر . . . ولكن اتفق لي أن قصدت إلى «المصرف الوطني» في مطلع الشهر ، لأصرف صكا بخمسة جنيهات ، هي ما بقي لي على أحد عملائي من ألعاب قضية . وكنت في جمع زاخر ، أدافع جهدي في سبيل الوصول إلى نافذة الصكوك ، وقد أخذ مني الضيق كل مأخذ . فلمحت وأنا مدهوش مغيظ ، فتاة تمرق إلى النافذة بين صفوفنا غير معنية بأحد . وانطلق لساني بلفظة احتجاج قابلتها الفتاة بإجابة تحذير خشنة ، فازددت سخطاً ، ولكن لم يجد سخطي شيئاً

وبينما كنت خارجاً من المصرف ، وقد قبضت قيمة الصك ، صدمني شخص صدمة أزعجتني ، فالتفت فإذا بالفتاة عينها تسابقني نحو الباب ، فرمقتها بنظرة نكراء ، وهممت أن أصيح بها مهدداً متوعداً ، فعاجلتني بابتسامة رقيقة ، وهي تردد :

ألف معذرة ! ... لم أقصد البتة أن أسيء إليك ...

فنظرت إليها ولساني لا يزال ناقماً ثائراً ، فلم تدع لي فرصة التكلم ، بل واصلت قولها :

كنت قليلة الذوق معك مرتين ... ولكني أؤكد لك اني لم أفعل ذلك عن عمد ... إنهم يرهقوننا بانتظار مضجر مثير للأعصاب ، ولدينا أعمال لا تحتمل إضاعة الوقت !

كانت تتكلم وابتسامتها تزداد إشراقاً ونضارة ، فقلت لها وقد مرت على فمي بسمة عابرة :

هذا صحيح ... ! انهم يرهقوننا بالانتظار ... ولكن لا تنسي يا آنسة أننا في اول الشهر ... فللمصرف عذره !

— أوافقك على أن للمصرف بعض العذر ، لا العذر كله ... على الرؤساء أن يدبروا الأمر ، وأن يبذلوا أقصى الجهد في سبيل إراحة العملاء . . . لقد أضاعوا علي محاضرة كان لزاماً أن أستمع إليها في الجامعة !

— أطالبة أنت؟ — في كلية الآداب ... — حسن جداً ...

ورأيتني أسير وإياها في اتجاه واحد من الطريق ...

كانت سمراء ، على شيء من ملاحة ، ترتدي ثوباً متواضعاً لا يدلُّ مظهره على اليسر ، وإن احتفظ بظلٍّ من الأناقة والذوق السليم.. لا يميزها من مثيلاتها ممن يصاحبن عابر الطريق وعابسيهنَّ إلاّ سمة خاصة : شفتاها : ... أجل ، شفتاها ، بيت القصيد فيها ... كانتا شفتين غليظتين ، لا تراهما منطبقتين قط ، بل منفرجتين أبداً ، تسمحان لخطٍّ أبيض من الأسنان أن يكشف عن تألقه وتناسقه ... وإنك إذ تنظر إلى الشفة العليا منهما ، تلحظ على الفور كأنها تحاول دائماً أن تنأى بنفسها عن رفيقتها ، في إباء وترفع ، ولقد تركّز هذا الترفع والاباء في نتوء يتوسطها . نتوء يماثل من وجوهٍ شتى « حلمة الثدي » ، يجتذبك بتكوينه الفني ويرغمك على ان تدمن النظر اليه ...

وكنا قد قاربنا « شارع فؤاد الأول » عن كثب من مشرب « الامريكين » ، فسمعتها تقول : أتزمع ركوب الترام من هنا ؟

— بل أقصد إلى « الأمريكين » لاحتساء قدح من الشاي ، قبل الذهاب إلى المحكمة ...

— اتفاق عجيب ... لي زميلة سترافقني الآن في المشرب ، كي ترافقني إلى الجامعة ...

— إذن طريقنا واحد ...

فقالت ، وقد خطرت على محيّاها ابتسامة وضّاحة : يلوح لي ذلك !

وأردنا اجتياز الطريق ، فاعترضنا سيل من العربات والناس يزحم بعضهم بعضاً . فمددت لها يدي ، فأمسكت بها في رفق . وعبرنا « شارع فؤاد » من جانب الى جانب ، كالسفينة تشقُّ الموج في خضم صاخب ....

وقالت لي ونحن نصعد الى الطبقة العليا من المشرب : أعلى موعد أنت في المحكمة ؟

— مع أحد العملاء ... — أنت محام ... ؟ — يلوح لي ذلك !

فأرسلتْ ضحكة خفيفة ، تعالت على أثرها شفتها العليا في اختلاجة رشيقة ، على حين أخذ النتوء الذي يتوسط هذه الشفة يتقلص وينبسط في جاذبية أخاذة ...

وأخرجتُ محفظتي ، وتناولت منها بطاقة قدّمتها اليها قائلاً :

قد تحتاجين الى محامٍ ... لا قدّر الله !

فتناولت البطاقة باسمة ، ونظرت فيها تقرأ اسمي ، وتقول :

تشرّفنا يا أستاذ ... سمعت اسمك قبل اليوم ... ما أسعدني بهذا التعارف !

— الشرف والإسعاد لي يا آنسة

وكنا قد بلغنا الطبقة العليا ، فدارت الفتاة بعينيها في المكان متفحصة ، ثم همهمت : لم تحضر زميلتي بعد

ولم يكن في المكان إلا نفر قليل منتثر هنا وهنالك ... فقلت : وهل تنتظرينها ؟ ...

— يحسن بي ان أفعل ... — أيسوءك أن يكون انتظارك لها على مائدتي ؟

فابتسمت ، ولكن ما أسرع ان تزايلت ابتسامتها ، وهي تقول : أخشى عيون الفضوليين ..!

— وهل تلقين بالاً للمتطفلين ؟ — كلا ... ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أليس من النزق أن تجالس فتاةٌ رجلاً لم يمض على معرفتها به غير لحظات ؟ !

— هذا موضوع نستطيع ان نجعله مدار نقاشنا على مائدة الشاي ! ...

— ولكن يا سيدي ... — تكلمي ...

— إنها المرّة الأولى التي أجلس فيها الى رجل في منتدى عام ...

— حتى اذا كان من أقربائك ؟ — وهل أنت من أقربائي ؟

— هبي ذلك ! ... — لمَ هذا التثبت ؟

— عام يرغب في كسب قضيته ... — وهل تحوّلت المسألة قضية ؟

— قضية « صداقة » أرغب في توطيدها ! ...

— ماذا تقول زميلتي اذا رأتني معك ؟

— ألا ترين عيون الناس قد بدأت ترمقنا ؟ ! — هذا ما كنت أتوقعه ...

ودنونا من أقرب مائدة ، وجلسنا اليها . وسرعان ما أقبل علينا غلام المشرب ، فنظرت اليها ، وقلت : بمَ تأمرين ؟ — بقدح من الشاي ...

فقلت للغلام : قدحان ...

ومضى الغلام ، وأخذت الفتاة تطوف بنظرها صامتة فيما حولها ، وأنا أراعيها .. وسمعتها تهمهم : ما أسمجه ؟

ثم واجهتني بقولها : إنهُ لم يحوّل نظره عني لحظة منذ قدمنا ...

— مَن ! — هذا الوقح ... !

قالت ذلك وأشارت بعينيها الى رجل بدين له وجه كالرغيف المقبب المتوهج ، ووصلت جملتها السابقة بقولها : إنهُ من محتقي الأثرياء الذين يخالون الدنيا طوع يمينهم ..

— أتعرفينه ؟ — ومن أين لي أن أعرفه ؟

— كيف علمت إذن أنهُ من محتقي الأثرياء الذين ....

فقاطعتني في لهجة حازمة ، وقد زوت ما بين حاجبيها : إن وجههُ ينطق بذلك !

— أنت دقيقة الملاحظة ...

وأقبل غلام الشرب بالشاي ، فوضعهُ أمامنا ، فصببت لها قدحها وصببت لي قدحي ومضينا نجرع الشاي على مهل . وأخرجت علبة لفائفي ، وقلت : أتسمحين ؟

— دخّن كما تشاء ، ولا حرج عليك . . . — وأنت ؟

فحدجتني بنظرة عتاب ، قائلة : سيدي ! — لا تؤاخذيني ...

وتناولت لفافة ، وأخذت أدخنها لحظة في صمت . ومرّ أمامنا الرجل البدين ، ذو الوجه المقتّب ، يلوح في جهد ومشقة . فألقى علينا نظرة ساخرة وتابع سيره . وسمعت الفتاة تغمغم : يا للوقح ! — حقاً انهُ لسمج

— أما لاحظت كيف كان ينظر إليّ ؟ لا أحتمل رؤية هذا الضرب من الناس ! .. إنهم يمثلون ... في ذلك النفر البائد من أمراء الإقطاع ... لا تؤاخذني !

— على أيّ شيء أؤاخذك ؟ — قد يكون في حملتي على هذا الضرب من الرجال ...

— وهل تريني من هذا الضرب ؟

فضحكت في خفة ، وقالت : لا أقصد ذلك ، ولكن يجب أن أصرح لك بأني أمقت هؤلاء الأثرياء المتقاعدين ذوي رؤوس الأموال الذين يمتصون دم الشعب !

— كلامٌ وجيه ... — إذن أنت من أنصار الاشتراكية !

— وهل قلت ذلك ؟ — أتكون إذن من المعارضين لها ؟

— لم أقل ذلك أيضاً ! ... — أيّ مذهب اجتماعي تعتنقه إذن ؟

— لم ألقِ على نفسي هذا السؤال حتى الساعة !

— أنت متعب ... ! — أشكرك !

ونظر كلٌّ منا الى الآخر ، ثم استرسلنا في قهقهة عالية ، وجدتني أثناءها أرنو الى شفتيها الغليظتين ، وهما تلتطمان وتتدافعان ، وأرقب في شغف ذلك النتوء الجميل ، ووددتُ لو طالت ضحكتها وقتاً غير قصير ... وسمعتها تقول : أعترف بأنك غير صريح !

— قد يكون ذلك ... — أما أنا فعلى العكس صريحة جداً ! ...

— هذا حق .. إذ أعلنت لي في وضح النهار أنك تميلين الى النظام الاشتراكي !!

— ألستُ على صواب في هذا الميل ؟ ألا توافقني على أن التوزيع الاقتصاديّ في المجتمع الراهن غير عادل ؟ — أوافقك ...

— بلسانك فقط ؟ — بل بقلبي !
— إذن لقد استطعت أن أجتذبك الى صفي !
فقلت في لهجة هينة : أوكنت تظنين أنك غير قادرة على اجتذابي ؟
فأسبلت جفنيها وهي تقول في صوت ليِّن المكاسر : يبدو لي أنك سهل الانقياد ، سريع التأثر !
فقلت لها ، وعيناي لا تفارقان شفتيها : لا كلّ الأحيان !
وكانت يدها على المائدة تعبث بملعقة الشاي ، فددتُ يدي ، وأطبقتُ كفّي على راحتها فاجتذبت يدها في غير عنف . وألقت بنظرة خاطفة على ساعة الحائط ، ثم نهضت وهي تقول :
لقد تأخرت زميلتي عن الموعد ، وقد أطلت في انتظاري إياها ... يجب أن أغادر المكان.
— أيكون قد بدر مني شيء ساءك ؟! — أنا شاكرة على كل حال حسن ضيافتك ...
— آسف اذا كنت ... — لا يساورك شيء من ذلك ...
ومدّت إليّ يدها ، وهي تبتسم ، وقالت : الى اللقاء يا سيدي ...
— الى اللقاء يا آنسة . .
واتجهت نحو السلم ، وانحدرت عليه مسرعة . وعدتُ الى مقعدي ، واسترحت أفكر فيما مرَّ بي بالساعة ، وكانت الشفاه الغليظة ذات النتوء اللطيف تتراءى لي في كل لحظة ... لا أدري كم مضى عليّ من الوقت وأنا في جلستي هذه . ولكن ظهور غلام المشرب أمامي أيقظني من حلمي . وعلمت أنه جاء ليقبض ثمن الشاي ، فدفعت يدي في جيب سترتي . ولشدّ ما كان عجبي إذ لم أجد حفظة نقودي في مكانها ، وأسرعت أبحث عنها في جيوبي الأخر وأمعن في البحث ، ولكن على غير طائل ... أين اختفت ؟ ومن أخذها ؟ ولمحت بخاطري صورة صاحبة الشفاه الغليظة ... أيمكن هذا ؟.. مستحيل ... مستحيل ... ولكن أين اختفت الحفظة ؟ .. وعدت أبحث ثانياً ... لم يسلبني إياها أحد في الشارع . إني على يقين من أنها كانت في جيبي حينما دخلت مع الفتاة في هذا المكان ... ونظرت الى غلام المشرب ، وقلت مردّداً في حدّة :
لقد أخرجت الحفظة أمامها .. أعطيتها بطاقتي ... هذا مؤكد !
فنظر إليّ في حيرة ، وقال مجمجماً : ولكن ... ثمن الشاي يا سيدي !
— أتظنُّ أني محتال أيها الغبيّ ؟! — العفو ... العفو ... إنما ...
ودسست يدي على الفور في جيب صداري ، فألفيت معي ، لحسن الحظ ، من النقود الصغيرة ما يفي بما هو مطلوب ، فألقيته اليه ، وخرجت أعدو ، وأنا أكرّر :
المحتالة الماكرة ... سأدركها ... وسأسلمها الى رجال الشرطة !...

وارتدتُ المنطقة حول « الامريكين » أتصفح السابلة ، وأتفقدها بينهم وقتاً غير قصير ... ولكن بلا جدوى !

وقصدت في النهاية الى مكان عملي وأنا محنق ثائر ! ...

***

وفي اليوم التالي ، بينما كنت في مكتبي ، أقلّب بعض المجلات الأوربية المصورة ، استوقفت نظري صفحة مكتوب في رأسها : « مسابقة الشفاه » تحوي مجموعة صور مختلفة لشفاه بعض الغانيات الأمريكيات من كواكب « السينما » . وقد وضعت جوائز لمن يكشف عن صواحب هاته الشفاه . ووقع بصري على فم غليظ ، منفرج الشفتين ، يتوسط العليا منهما نتوء ملحوظ . . فعنيت أرنو اليه طويلاً . ولم ألبث أن انتزعت الصفحة من المجلة ، وقصصت منها الجانب الذي يشتمل على صورة ذلك الفم ... وقذفتُ بما بقي من الورقة في سلّة المهملات . وتناولت معجم « أبوت » الأثريّ الغارق دائماً في سباته العميق على مكتبي ، وأودعت بين حنايا صحائفه تلك القصاصة ...

وكثيراً ما ألفيتني بعد ذلك — أثناء درسي لقضية من قضاياي — آخذ المعجم شارد الذهن ، وأمضي عجلاً أقلّب صحائفه ، وسرعان ما ألقي أمامي صورة « الشفاه الغليظة » تحدّق فيّ فأحدّق فيها . ومن ثمّ يفيض على نفسي إحساسٌ بهيج يفضي بي إلى أحلام عذاب !

* * *

وترادفت الأيام ...

وكنت يوماً في « قسم البدالة » أجاذب « المأمور » الحديث في قضية من القضايا ، فتعالت بغتة اصوات خارج الحجرة . وفي لحظة اقتحم علينا المكان رجل جاوز سنّ الشباب ، يبدو من هيئته أنهُ من ذوي المعاش ، وهو يجذب فتاة من يدها ، وينعتها بأرذل النعوت ، رامياً إياها بالسرقة والاحتيال ، على حين كانت الفتاة تنكر في تعنت ومكابرة ، وتحاول أن تخلّص نفسها منهُ

وبرزت أمامي في الحال « الشفاه الغليظة » ذات النتوء الملحوظ !

وعرفتني على الفوّر ، وسرعان ما وجدتها تخاذلت ، فأمسكتْ عن الكلام ، وقد علني على محيّاها امتقاع !

وكان الرجل ما يبرح قابضاً على يدها يسوقها في عنف إلى مكتب « المأمور » ولسانهُ ينهمر بسيل من سبابه البذيء . فتقدمت منهُ ، وأخليت يدها من يده ، وقلت له :

تذكّر ياسيدي أنك في دار الشرطة ... شأن الفتاة الآن موكول إلى « المأمور » ... !

فنظر إليّ الرجل نظرة عاتبة ، وقال في تأتأة :

لقد سرقت حافظة نقودي حينما كنت في القهوة منذ أيام، وقد اختفت ، ولم أعثر عليها في ذلك الوقت . واليوم وجدتها اتفاقاً في الطريق ، فقبضت عليها بمعاونة رجال الشرطة ... يجب أن تعيد إليّ ما سرقته... إنها محتالة ...ما كرة... لصّة ! ...

فلم تعترض على كلام الفتاة ، بل ظلت ممسكة وهي تنظر أمامها نظراً ثابتاً . فقلت للرجل : كم أخذت منك ! — ثلاثمائة وخمسة وثلاثين قرشاً ... غير ثمن الحفظة !

قلتُ لـ « المأمور » وأسررت اليه : إني أعرف هذه الفتاة ، وأمرها يهمني ، فاذا قبلتَ ضماني ، وأطلقتَ سراحها ، كنتُ لك شاكراً ...

وألححتُ عليه ، وكان ممن يثقون بي ، فقبل ... فانتبذت على الفور بالرجل مكاناً قصياً ، ونقدته ما طلب . وخرجت آخذاً الفتاة من يدها .

وما كدنا نترك « القسم » حتى رأيتها تكركر في الضحك على حين بغتة . فنظرت اليها مغضن الجبين . وقلت : حقاً إنهُ موقف يثير الضحك !

فنظرت إليّ بمؤخر عينيها ، وقالت : أتريدني أن أبكي ؟!

— كان الأجدر بك على الاقل أن تصمتي ! — ولِمَ ؟

ألا تستشعرين الخجل ؟ — أتبغي أن تلقي عليّ محاضرة في علم الاخلاق ؟!

— وهل تجدي معك هذه المحاضرة ؟

فأطلقت قهقهة ، وقالت : ليس لديّ من الوقت مايسمح لي بسماع أمثال هذه المحاضرات .. !

فضغطت يدها في عنف . وقلت : كُفّي عن هذرك ... وإلا ...

فصوّبت اليّ نظرة حادة وقالت : وإلاّ ماذا؟ — أتظنين أنني غير قادر على تأديبك ؟

— ومَنْ تكون أنت ، حتى تبيح لنفسك هذه السلطة ؟!

— أبيحها لنفسي ، بمحض إرادتي !

فتضاحكت معابثة ، وقالت : ولكنني لا أُبيحها لك !

فازددت في ضغط يدها ، وقلت : كُفّي عن هذا الهذر ... لن تجدي من ورائه إلاّ أسوأ العواقب ...

فصاحت ، وهي تشدّ يدها : ليس لك شأن بي ... أترك يدي ... أسامع !

فلم أعنَ باحتجاجها ، بل تماديت في ضغط يدها ، فضعف صوتها واختلج ، والتمعت عيناها ببريق الدموع وسمعتها تغمغم : رجل قاسٍ بلا قلب !

وانطبعت على شفتيها مظاهر الذلّ والانكسار ، فأكسبتهما منظراً خلاباً .. ووجدتني

أخفف الضغط عن يدها، وواصلت كلامها قائلة: ماذا تريد مني؟... قل!... ماذا تريد؟
فأجبت: أريد أن أقوّم من اعوجاجك، وأن أصلح من نفسك!
— ولِمَ كل هذا يا حضرة؟
فقلت متباطئاً، وعيناي لا تفارقان شفتيها: إنه عمل من أعمال الخير، أقدمه الى الانسانية!
— الانسانية؟ وهل تعنيك الانسانية الى هذا القدر؟ — يلوح لي ذلك...!
— عجيب أمرك! ولكن أتعلم كم أضعت من مال حتى الساعة في سبيل هذه الانسانية؟
— أعلم! — وقد تفقد أكثر من ذلك في المستقبل!
— محتمل هذا... — حبّاً في الانسانية؟!
— أرغب في الأخذ بناصر مخلوق تعس، وانتشاله من هاوية تردّى فيها...
فحدقت فيّ وقتاً صامتة، ثم قالت: أتظنُّ أنني لصّة؟
فابتسمت قائلاً: معاذ الله!
— ظنّ ما تظنّ... لماذا تتمتعون أنتم بالمال، وفقيرة مثلي لا تلقى ما يقوم بأودها؟
— عدنا الى الاشتراكية...
— أنا لم أسرق... إني أنال حقّاً مشروعاً... إني أعيد الى طبقتنا المهيضة الجناح بعض ما سلبتموها من رزق!
ومضت في حديثها مهاجمة بالغة السطوة، وكنا نسير جنباً الى جنب في خطىً وئيدة فتركتها تفرغ ما في جعبتها، حتى اذا بلغت النهاية، قلت لها: إنكِ لقوية الحجة!
— أتهزأ بي؟ — كلا...
— ما زلت تحسبني لصة؟ — لا أريد أن أحسبك كذلك! — لا تريد؟!...
ووقفت قبالتي متفحصة، ثم أردفت قائلة: ولماذا لا تريد؟ — هكذا...
— ولكنني أؤكد لك أني لست لصة إني لم أقدم على ما أقدمت عليه إلا لأسباب قاهرة!
وأمسكت برهة، ثم استأنفت حديثها: أسباب مشروعة طبعاً!...
— هذا محتمل...
— لي أبٌ مصابٌ بمرض لا يرجى شفاؤه، وأربعة من الاخوة والأخوات، كلهم أطفال وأنا وحدي أعولهم... إن عملي المضني في حياكة الاثواب لا يدرّ عليّ الا النزر الذي لا يغني!
— ومن أجل هذا، أرغب في اصلاح أمرك! — ألديك عمل أستطيع ان أقوم به؟
— آمل ان أجد هذا العمل... — ما نوعه؟

— لا استطيع ان أحدده لك الآن ، انما أعدك بأن أبذل ما في وسعي ، لأهيء لك عملاً نافعاً …

فانطلقت تقلب في وجهي عينيها المتسائلتين، ثم قالت مبهمة : أتثق بي ؟

— أرغب في ذلك !

فابتسمت ، وقالت : سأزورك في المكتب …

— إني منتظرك … هاك عنواني …

ودسست يدي في جيبي ، لأخرج المحفظة ، ولكنها بادرتني بقولها، والابتسامة ما زالت تموج على محياها : إني محتفظة ببطاقتك التي أعطيتنيها في « الامريكين» …

— حقاً ؟ !

فقالت في صوت خافت ناعم النبرات ، وهي تعبث بأصابعها :

إنها بطاقة ثمينة … لا أفرط فيها … أتريد أن تراها ؟

— إني أصدقك …

— شكراً لك … والآن يجب أن أمضي الى البيت … آسفة إذ سببت لك متاعب كنت في غنى عنها … كل ما فقدته من مال لأجلي سأعيده اليك حتماً … كن على ثقة بأنني لست من الخبث وسوء الطوية بالدرجة التي يتوهمها الناس فيّ … ستجد على الأيام مصداق ذلك !

— ما أشد رغبتي في تحقيق هذا …

— سأزورك غداً في المكتب … إذا لم تجد لديك من ذلك مانعاً …

— في أي وقت ؟ — قبيل الظهر … — منتظرك …

ومدّت إليّ يدها ، فاحتوت كفّي راحتها . ومكثت قبالتها وقتاً صامتاً أعلى مفاتنها ، والغبطة تشيع في نفسي ، ثم همست : أتقبلين أن نتناول الغداء معاً ؟

— كما تريد … — أشكر لك …

— الى الملتقى … — أنا في انتظارك …

وتركتني وهي تبتسم في عذوبة

وطاب لي أن أعود الى منزلي مترجلاً ، وسرت في خطوات هينة . وكنت أثناء الطريق أدخن اللفائف واحدة إثر أخرى ، وأنا هيمان أفكر فيما مرّ بي الساعة مع ذات الشفاه … وساءلت نفسي مرّات : هل كنت مصيباً في موقفي منها ؟ ألم يكن الأجدر بي أن أتركها في « القسم » بين يدي الشرطة ، وأن أعزز التهمة ضدّها عقاباً لها وردعاً لمثيلاتها … وهنا طفقت أناقش نفسي في فلسفة العقوبة ، وما هي أقوم السبل الى إصلاح المجرم على ضوء

المباحث النفسية الجديدة ، وهداية مبادىء الانسانية الرحيبة . وانتهيت من هذا النقاش الى نتيجة اطمأننت اليها ، وهي أن صنيعي مع هذه الفتاة البائسة خير ما يفعله امرؤ كبير القلب ، إنسانيُّ النزعة . وإني جديرٌ بأن ألزم هذا المبدأ في حياتي أبداً ..

دخلت منزلي ، وتناولت عشاءً خفيفاً . ثم قصدت الى مكتبي لأدرس بعض القضايا . فلم أجد ميلاً الى العمل ، بل أحسست تراخياً ورغبة في التمدّد على المقعد الفسيح ، ففعلت ... وامتدت يدي الى معجم « أبوت » وأخرجت صورة « الشفاه الغليظة » ومضيت أتأملها مليًّا ... إن لها أباً مصاباً بمرض لا يرجى له شفاء ، وإخوةً وأخوات أطفالاً .. انها لتقضي الليل مكبّة على الحائكة ... وماذا تربح من هذه الحائكة ؟ كثيراً ما تدفع الفاقة بالمرء الى مهاوي الجريمة . ومن ثمّ يهب القانون مطالباً بالعقاب ... حقّاً إن في الأوضاع الاجتماعية أظالم فادحة يجب القضاء عليها ..

وفي صباح اليوم التالي ، نهضت من فراشي ، وقد اعتزمت أن أتخلف عن المحكمة ... ألا يحقّ لي أن أمنح نفسي إجازة يوم واحد ؟ أحتمٌ عليَّ أن استقبل كل نهار تلك الوجوه السمجة ؟ وأن ألتقي هذه الابتسامات السخيفة التي تحمل طابع الرياء ؟ ..

وطلبت زميلي في « التلفون » وأفهمته اني منحرف المزاج ، فعليه أن يحلّ محلي في المحكمة . وأوصيت الطاهي أن يهيء لي غداءً طيباً ، وخرجت الى السوق ، فأتيت بألوان ممتازة من الشهيات والحلوى ...

مكثت انتظر قدومها ...

وطال انتظاري ، نقلقت ، وساورتني ظنون شتى ... أيكون أبوها قد استبقاها لمرضه برهة أم أخطأت تقدير الوقت ؟ أم انها قد تكون ...

كلا ... انها لقادمة ... قادمة حتماً !

وطال انتظاري أيضاً

وألحّ الطاهي في سؤاله : متى يؤذن له بتقديم الطعام ؟

وحلت الساعة الثالثة ، ولم يظهر لذات الشفاه الغليظة أثر ...

وأطلّ الطاهي من فرجة الباب ، ولم يكد يفتح فاه متسائلاً ، حتى قذفته بمعجم « ابوت » الضخم ، فولى الأدبار هارباً ..

***

وتعاقبت الأيام ..

وبينما كنت في مكتبي وقت الأصيل مع بعض زملائي ، منصرفين الى درس قضية مهمة ،

إذ دقّ « التليفون » وكان المتكلم : « مأمور قسم الخالة » فأخبرني بأن الفتاة التي ضمتها ضبطت متلبسة بالسرقة ، فهمت أن أصيح به ان احبسوها ، فقد تعصت بدي عنها ، ولكن وجدتني على الفور ألحّ عليه في ان يبعث اليّ بها على عجل ، وعليّ إصلاح الأمر .. فلم يقبل ، فرجوته مستعطفاً ان يفعل ، فهي فتاة مريضة ، في طبعها شذوذ ، يعالجها طبيب في الأمراض النفسية وانها من أسرة كريمة ، ولأبيها مكانة ملحوظة في الهيئة الاجتماعية ، فن واجبنا ان نصونه عما يشينه ... وأطلتُ في حديثي ، فأكدت له اننا سنبالغ في رقابتها ، ومنع اتصالها بالناس ، وأفضت له في ذلك حتى قبل ...

والتفت الى عملائي معتذراً عن مواصلة العمل ، فانصرفوا مرغمين متذمرين . وانطلقت أجول في الغرفة بخطى مضطربة ، وأنا أجمجم : ستري ! ... ستري ! ...

ولكنني لم أكن أعلم ما أفعل معها . كان رأسي مشحوناً بمختلف الصور المختلطة المتشابكة ، لا أستطيع أن أتبيّنها أو أميّز بينها . وعجبت من أمري : كيف رضيت أن أصوغ « للمأمور » هذه الأكاذيب العجيبة ، وكيف أسعفتني بديهتي على اختراعها بمثل هذا اليسر ؟!

وظللت على حالي تلك ، حتى قرع الباب ، فوثبت اليه أفتحهُ ورأيتها أمامي خلفها شرطيّ وسرعان ما صرفته وجذبتها من ذراعيها . وسمعتها تقول : لماذا أتوا بي هنا ؟

فرميتها بنظرة محدّدة وقلت : يا لك من سيئة الطبع خبيثة !

— أراك ثائراً لأنني لم أزرك كما وعدتك ... — أو تظنين أنني صدقتك ؟

— صدقتني ، وانتظرت مقدمي بفارغ صبر ...

— أنا انتظرتك ؟ أنا ؟ ... هل بلغت بي الغباوة أن أهتمّ بشخص حقير مثلك ؟!

— أجل ، أنت مهتم بهذا الشخص الحقير ، مهتمّ به أشدّ الاهتمام ...

— إخرسي ... — ولقد تعمدتُ ألاّ أحضر ، لأدفعك الى انتظاري ...

— يا للوقحة !

— أما سبب اهتمامك بي ، فأمرٌ لا يخفى عليك .. انك تهواني ... أجل ، تهواني !

فصحت ، وقد أقبلت عليها متضمراً : أنا أهواك ؟ أنا ؟ .. وهل فيك شيء لا يُحبّ ؟ ...

— أنت مدلّه بي ... ولكنني لن أنيلك مُناك ... حتى القبلة الصغيرة سأمنعها عنك !

— أنت أعجز من أن تمنعي عني شيئاً . ولكنني زاهدٌ فيك لحقارتك ... ما أشدّ افتقارك الى ما يجتذب الرجل !

— انك تذوب شوقاً الى لثم شفاهي ...

— شفاهك ؟ ... هاها ... ! شفاهك الغليظة المتورمة المدلاة كشفاه أقبح الزنوج ...

— لن أنيلك شرف لثمها أبداً .. ستظلُّ محروماً إياها مهما يستعر لهيب غرامك ، وتتأجج نار شوقك !!

— غرامي ؟ ... شوقي؟ .. سأريك كيف أنا مغرمٌ بك ، مشوق اليك .. سأريك !

واختطفت خيزرانة ، كانت ملقاة على أحد المقاعد ، وأمسكت « ذات الشفاه » وانهلت عليها ضرباً ، ورأيتها تحاول المقاومة بادىء بدء ، ولكنها وجدت مني مؤدباً عنيفاً عنيداً صعب المراس ، فاكتفت بأن تحمي جسمها من لسع العصا المرنة ما استطاعت الى ذلك سبيلاً .. ثم انطلقت تستعطفني وتسترحمني ، فلم أستجب لها ، بل ظللت جاداً في الضرب في مهارة وتفنن ، حتى أدركني التعب ، فتركتها ... وجلست على المتكإ أمسح وجهي وأغمغم :

لعلك بعد هذا تقلعين عن غيِّك ، وتثوبين الى رشدك ...

وألفيتها تزحف الى ركن من اركان الغرفة ، تجمعت فيه وراحت تنشج

وقمت الى مكتبي ، ومضيت أعبث بأقلامي صامتاً ، وأنا انظر اليها من طرف خفيّ ...

ثم قلت كأني أحدث نفسي : ستشكرين لي هذا الصنيع .. إنهُ درسٌ نافع لك في الحياة !

فلم تجبني، بل جعلت تنشج نشيج طفل ذليل مبتئس !

ولبثنا وقتاً على هذا الحال هي في ركنها تولول ، وأنا جالس الى مكتبي أعبث بأقلامي ، وأخالسها النظر الفينة بعد الفينة ...

وهممت أخيراً أن أذهب اليها لاترضاها فوجدتها ترفع رأسها ، وتهمهم بهذه الكلمات :

لم أكن أستحقُّ منك أن تعاملني بهذه القساوة ... — بل تستحقين ...

ومضت تمسح وجهها ، وتنسق ما تشعث من شعرها ، وهي تقول :

لو علمت اية عاطفة طيبة أكننها لك ، لما فعلت معي ما فعلت !

فتضاحكت قائلاً : أية عاطفة ؟

— لا تزد من ألمي ، بهذه السخرية !

ونهضت تقصد مكاني ، قائلة :

أقسم لك اني كنت معتزمة زيارتك ، وفق الموعد الذي ضربناه ...

— أتعودين الى مكرك ؟

— أقسم لك اني صادقة في قولي هذا ! لقد كنت حاضرة اليك لولا وفاة أحد أقاربي

ودنت مني ، وهي تتكلم حسيرة البصر : أأكون منكرة لجميلك الى هذا الحد ؟!

ودنت مني ايضاً ، وهي تقول : ألم تشعر بأني أميل اليك... ؟

فصحت : تميلين اليَّ ؟ انت ؟!

وانكبت على ركبتي تحتضنهما ، وهي تقول : أحبك ! أحبك ! ...
— وإذا كان هذا مبلغ شعورك نحوي ، فماذا كنت تعاندين وتكابرين ؟
فرفعت رأسها اليّ ، وعيونها شرقة بالدموع ، وقالت : من فرط حبي لك
ونهضت ، فطوّقت عنقي بذراعيها ، ثم أدنت وجهها من وجهي ، وهمست قائلةً :
— دونك شفاهي ... هي لك ! وغبنا معاً في عناق حار ، وقبلات مستعرة ...

***

وأجلستها بجانبي على المتكأ ، ويداها بين يديّ ، على حين كانت عيناي لا ترويان من النظر الى شفتيها ، وقالت لي : لن أفارقك ! ... لن أفارقك أبداً ... ! — كيف ؟
— ألا ترضى ان أقيم معك ؟ — وأسرتك ؟
— لا يستطيع أحد في العالم أن يحول بيني وبينك
وعقدت ما بين حاجبيها ، وقالت في صرامة : سأقرر مصيري بنفسي . أنا حرة في تصرفي . لا سلطان لأحد عليّ !
وسمعنا في هذه اللحظة دقاً بالباب ، فألفيتها تفزع الى رقبتي تتعلق بها ... وهي تهمس في نبرات مختلجة : لا تفتح ... لا تفتح ... لا أريد أن أعود اليه !
وسمعت صوت الطاهي يسألني عن طعام المساء ، فطلبت اليه ان يرجع بعد فترة ... ثم التفتُّ اليها ، وقلت : ممن تخافين ؟
فتحركت شفتاها ، دون ان تنطق بحرف وعدتُ أقول : فيم الفزع ؟ ... ممن تخافين ؟
فقالت ، والحيرة تجول في مآقيها : أأستطيع ان أعوّل عليك ؟ — كل التعويل ...
— أقادرٌ أنت على أن تدفع عني كلّ أذى ؟ أقادرٌ أنت على حمايتي ؟ حمايتي منهُ ... ؟ !
— مَنْ هو ؟ ... من ؟ — هو ... هو ... — أبوك ؟ — ليس لي أب .
— إذن مَنْ يكون ؟ فأخفت وجهها في صدري ، وطفقت تنشج قائلة :
لقد كذبتك ... كلُّ ما أخبرتك به محض اختلاق ... اغفر لي !
— أوضحي كل شيء ... تكلمي ...
فرفعت عينيها إليّ ، وقالت : لا تحقد عليّ ... اني فتاة بائسة .. لا نصير لي في الدنيا سواك .. ألم تقل انك راغبٌ في إصلاح أمري ؟
— عوّلي عليّ واكشفي لي عن متاعبك وهمومك ! — اذن لن يستطيع أن ينالني بسوء !
— من هو ؟ — هو الذي يأمرني فأطيع ... هو الذي يلقنني كلّ كلمة أتفوّه بها . ويرسم لي كل طريق أسلكه ... هو الذي يفرض عليّ إتاوات يجب أن أؤديها اليه كل يوم ... هو أصل بلائي ! — من هو ؟

— هو شيطانٌ لقيني في طريق الحياة ، حوّلني من فتاة طيبة القلب ، طاهرة الذيل ، أدرس في معاهد التعليم بنشاط ، الى حيث ترى … أهوي الى الدرك الاسفل !

— ولماذا لا تتركينه !

— لا أدري ! … لا أدري لماذا لا أستطيع تركه ؟ … ولكنني أؤكد لك ان كل شيء انتهى الآن … سأستأنف معك عهداً جديداً … اني اضع حياتي كلها بين يديك ، فأقلني من عثرتي ، وانتشلني مما انا فيه .

— لا تخشي احداً ، ما دمت معي ! كوني على ثقةٍ بأني سأكون لك نعم الهادي ونعم النصير …

ووجدتها تريح رأسها ثانية على صدري ، وترخي اجفانها ، وقد شاعت في وجهها طمأنينة وهدوء … وغمرنا الصمت والسكون … وأخذ ضوء النهار يشحب …

وطال صمتها ، وهي مسبلة الاجفان . وكان صدرها يعلو ويهبط في حركة منتظمة ، فأحطتها بذراعي في رفق ، وطفقت أتطلع اليها ، مجتلياً سحرها الخلاّب …

يا لله ! … لم أرَها على هذه الفتنة من قبل … .

***

استيقظت والصبح قد بدأ يتنفس ، ودرت بعينيَّ أتفقد « ذات الشفاه » … فلم أجدها ، فناديتها ، فلم يجبني أحد … فانطلقت أبحث عنها في الدار ، فلم أعثر لها على أثر ! فقصدت الى حجرة مكتبي حيران مضطرباً ، فوقع بصري على درج المكتب مفتوحاً . وألفيت حلقة المفاتيح معلقة بقفله ، فأخذ مني العجب كل مأخذ ، ان حلقة المفاتيح لا تبرح جيبي ! وهرعت الى الدرج ، أبحث فيه ، فلم أجد محفظة نقودي ! …

ووقفت مبهوتاً ، وقد انتفخت أوداجي …

وعدتُ الى بحثي في دقة وتحرٍّ ، منادياً «ذات الشفاه» … ولكن كل ذلك كان بلا جدوى !

واندفعت الى «التليفون» أطلب «قسم البغالة» وما كاد يجيبني حتى أعدت السماعة مكانها في عنف ، وأنا أردد : غلط ! … غلط ! …

وجعلت أقطع الحجرة ذهاباً وجيئة ، وبغتة وقع نظري على معجم « ابوت » ملقى على الأرض في إهمال ، متجمعاً بعضه على بعض ، كشيخ طحنته السنون . وأبصرت بقصاصة الورق تطلُّ من بين صحائفه ، فانحنيت أجتذبها . وما إن طالعتني صورة « الشفاه الغليظة » حتى انهلت عليها دعكاً ، وقذفت بها في عرض الحجرة ، وانثنيت على المعجم ، فوقع في وهمي انهُ يرمقني في خبث وتهكم ، فركلتهُ ركلة شتّتت من أوراقه ، وبعثرت من فصوله … !